بِسۡمِ اللّٰہِ الرَّحۡمٰنِ الرَّحِیۡمِ ؕ

الرحلة الحجازية ومناهج المؤلفين فيها في العصر الحديث

سيد واضح رشيد الندوى(ندوة العلماء لكهنو الهند)

الحمدللّٰه رب العالمين والصلوة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله واصحابه اجمعين وبعد .

فان الرحلة ووصفها صنف من اصناف الأدبُ فى كل لغة من لغات العالم' لأن الرحلة تنقل الانسان من حالة الٰى حالة أخرى' ومن مكان إلى مكان آخر' ويلتقى المرتحل فى خلالها برجال واصناف من الناس' ويواجة أوضاعاً مختلفة وتتغير حالته الذهنية' ويشاهد مواضع الجمال والقبح والمحاسن والمساوى' ويجرب ما لذّ وطاب' وما خشن وما تعسر' فاذا كان المرتحل ذا شعور مرهف' ويملكُ قدرة بيانية وصف كل ماشاهده وجربه وكل ما أحس به و نتجت فى ذهنه معان و تصورات' و يعلق عليها باعتبار شعوره ووجدانه و باعتبار ثقافته و علمه' فيحمل وصفه مادة علمية وفنية' تفيد غيره ويشتمل ادب الرحلة على فن و ادب و علم' ويلتقى فيه الوصف والمدح و التصوير للمناظر و تشخيص الأ حاسيس ورسم الشخصيات' ويلتقى فيه علم التاريخ والجغرافيه' والسياسة والدين ومشاهد الحياة والطبيعة .

وقدكانت الرحلة عند العرب بصفة خاصة مميزة من مزايا الحياة' تميزهم عن غيرهم من الأمم' لانهم بحكم طبيعة حياتهم ولوضعهم قوم رحل' لايستقرون فى مكان كما قال شاعر عربى جاهلى(۱)

ونحن اناس لاحجاز بازضنا مع الغيث مانلقى ومن هو غالب

وقدوصف العرب رحلاتهم فى أدبهم' نثرهم ونظمهم' وظل السفرووصفه

صنفاً من أصناف الادب العربی فلاتخلو قصیدة طویلة من قصائد العرب فی الجاهلیة من وصف السفروالارتحال . ولاحاجة الی ذکر امثلته وهی کثیرة عامة' سواء فی المعلقات اوالقصائد الاخری ویکاد یصبح وصف الارتحال سمة اللشعر العربی' وعرفت بعض القبائل بالرحلة لاغراض التجارة' وهی آمنة' فاذا کانت بعض القبائل ورجالها یرحلون ویختارون الغربة' ویصفون مهالکها ومغامراتهاکما قال الاخنس بن شریك اوکمایصف تابط شرا اوالشنقری أو السلیك بن ابی السلکه کانت قبائل آمنة تقوم بالرحلة للتجارة کماکان بعض المرتحلین یرتحلون لزیارة الأمراء و الاغنیاء لطلب المال فکانوا یصفون مناظر السفرالطویل ویصفون القصور' وسکان القصور و مناظرها .

وقد أشار القرآن الکریم الی هذا الرحلة فی سورة مستقلة' "لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ" (قریش) و ذکر القرآن الکریم رحلات کثیرة ووصف مشاهدها کرحلة موسیٰ علیه السلام للقاء خضر علیه السلام وهی رحلته علمیة' ورحلته لدی خروجه من مصر خائفا' ورحلة اخوة یوسف علیه السلام الی مصر فی طلب الرزق ورحلة سلیمان علیه السلام ورحلة ذی القرنین و تشمل جمیع هذه الرحلات علی صور بیانیه مؤثرة .

وتذکر کتب التاریخ ان العرب کانو یرتادون الی الهند و فارس والروم للتجارة. ووصف بعض هذه الرحلات التی اشتملت علی المغامرات محفوظة فی کتب التاریخ والتراجم .

وفی العهد الاسلامی ازداد هٰذا الارتجاه' فخرج العرب من بلادهم ووصلوا الی أبعد أماکن الارض . و بلغت قوافلهم الی افریقیا و اور باواقصیٰ الشرق فی اوائل القرن الأول . وکانت هٰذه الرحلات للجهاد وللدعوة' وللعلم وللتجارة تحملوا فی هٰذه الرحلات شدائد و محناً لم تحتملها الأمم الاخری واشتملت کتب المغازی والسیرعلی وصف هٰذه الرحلات .

وقدحث القرآن الکریم علی السفر والسیاحة لتوسیع المعرفة . والتدبر فی ایات

اللّٰہ . والتذکر برؤیة عواقب الأمم السابقة' وذکر السفروالسیاحة ورد فی القرآن الکریم فی مواضع کثیره .

فالرحلة طبیعة عربیة' وهی صنف من أصناف الأدب العربی ' القدیم والحدیث' وهی طبیعة اسلامیةکذلك . وقد وسع دائرتها المسلمون سواء کان خروجهم فی الدعوة ام کان فی الجهاد أم فی السفارة الی الملوك والحکام أم کان فی طلب العلم' أم کان فی طلب الرزق' وکان الخروج من الوطن' وقطع مسافات طویلة' وتحمل الشدائد فیها . والرحلة الی اراضی حدیثه' والالتقاء بامم اخری سمة الحیاة الاسلامیة' وسجل کثیر من هولاء المرتحلین انطباعاتهم بأسلوب مؤثر جمیل . وقصة جعفر بن ابی طالب لدی النجاشی' و قصة هجرة الرسول صلی الله علیه وسلم من مکة الی المدینة وقصة ربعی بن عامر لدی رستم وقصة الخروج لغزوة تبوك وحدیث الافك وقصّة الاسراء والمعراج' وقصة سیدنا عمر بن الخطابؓ لدی فتح القدس نما ذج رائعة لأدب الرحلة فی العصر الاسلامی الأول.

وتشتمل کتب التاریخ والتراجم علی ادب الرحلة فی طلب العلم وصبرالعلماء الباحثین فی السفر.

ونشأ فی العصر العباسی الأول قسم جدید من ادب الرحلة وهی الرحلة الخیالیة و تمثل هذه الرحلة رسالة الغفران لأبی العلاء المعری والتوابع والزوابع لابن شهید الاندلسی' وهما أثران أدبیان لهما صلة بالرحلة وان کانت هٰذه الرحلة خیالیة .

ومن اصناف ادب الرحلة الرحلة الحجازیة وهی الرحلة للحج والعمرة یصف فیها العازم علی الحج و العمرة سفره من بلده الی البلاد المقدسة' ویصف ما جربه من رحلته' ویصف مشاعره' ویصور مناظر خلاّبة' ویصف وعثاء السفر' لأنه یمر بالجبال والاودیه' والمروج والبید' والغابات والبحار والأ نهار ویلتقی فیها برجال و یصادف الاقطار' والمخاوف' فتشمل رحلته علی وصف ومدح و تصویر للمناظر' و تشخیص للأحاسیس الذهنیة . ورسم للشخصیات والمواد العلمیة والجغرافیة' والاحوال

الاجتماعية والرحلة الحجازية' وهوصنف اسلامی خالص رغم كونه صنفا أدبيا خالصا باعتبار المواد الأدبية' واشترك فی التاليف فيها كبارالادباء فی عصور مختلفة و قائمة الكتاب فی هٰذا الصنف طويلة' و توجد نمازجاً فی كل لغة من لغات المسلمين مثل المدائح النبوية التی توجد فی كل لغة من لغات المسلمين' وقد وصف القرآن الكريم هٰذه الرحلة باسلوبه المعجز الموجز فقال :

"وَاَذِّنْ فِی النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَّ عَلٰی كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوْا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوْا اسْمَ اللّٰهِ فِیْ اَيَّامٍ مَّعْلُوْمَاتٍ عَلٰی مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيْمَةِ الْاَنْعَامِ فَكُلُوْا مِنْهَا وَاَطْعِمُوْا الْبَائِسَ الْفَقِيْرَ ثُمَّ لِيَقْضُوْا تفثهم وَلْيُوْفُوْا نُذُوْرَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوْا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ذٰلِكَ وَ مَنْ يُّعَظِّمْ شَعَائِرَ اللّٰهِ".

مناهج الكتاب

تختلف مناهج الكتاب فی وصف الرحلة الحجازية باختلاف طبائعهم و ثقافتهم' فيغلب على بعض الرحلات الطابع الجغرافی اذاكان الكاتب مهتماً بجغرافية الأماكن التی زارها' ولا يطغٰی ذلك على العنصر الفن' لأن الرحلة عندما تنقله الى الاماكن المقدسة التی يشتاق اليها وكان حريصا على زيارتها منذ مدة اذا وقع بصره عليها فاضت قريحته' وثارت الأشجان والاشواق فتصبح هٰذه القطعة أدبية خالصة' ويبدوكأنه وصف لديار الحبيب' فان انتقل الى جوانب اخرى انتقل بعد تحيتها تحية لائقة' و منهج كاتب آخر منهج علمی رزين هادئ غيرمنهج وصف للمناظر والعرض الجغرافی' و سنقدم فی هذا المقال بعض نماذج من هذه المناهج المختلفة' .

نقدم اولا نماذج العرض الفنی الوجدانی' وقد اخترناه من كتاب من نفحات الحرم للاديب الكبير الاستاذ على الطنطاوی' وهو يصف رحلته برؤية جبال المدينة و نجدفيها كيف انتقل من حاله عاديةإلى الىٰ حالة عاطفية :

يقول "صحت بالدليل يا محمد' ايش تكون هذه الجبال؟ فقال هذه يا خوى جبال المدينة ' ونحن ان شاء الله الظهر فيها . قلت ما تقول بى؟ ووثبت وثبة تطاير منها اليأس والخمول عن عاتقي' واحسست كأن قدصبّ فى أعصابى عزم امة و قوة جيش' وظننت انى لو أردت السحاب لنلته' ولوغالبت الاسود لغلبتها' ولو قبضت على الصخرلفتقته' وجعلت اقفز واصرخ' لا اعى مّا انا فاعل' فقد استخفنى الفرح' وسرنى من هٰذه الكلمة اكثرما يسرنى ان يقال لى انت اميرالمؤمنين صحت بأصحابى وقاموا كالاسود"

واقراواهٰذا الوصف للاماكن و بيان الموقع الجغرافى' وكله باسلوب أدبى :

"خرجنا من الوادى' وانتهينا الى الفضاء الرحب' رأينا وجه أحد وعلى سفحه النخيل والبساتين . ورأينا سلعاً وهو جبل عال أسود يقوم حيال احد' فيحجب المدينة وراء ه' فلايبدو منها إلا جانب الحرة' وطرف النخيل' فذكرت قول محمد بن عبدالملك الزيات وقد ورد بغداد' فحن الى المدينة :

الا ليت شعرمى هل ابيتنّ ليلة بسلع ولم تغلق علىّ دروب
وهل احد بادٍ لنا وكأنه حصان امام المقربات حبيب
يخب السراب الضحل بينى وبينه فيبدو لعينى تارة ويغيب

وهل شعريكون اكثر تاثيراً من هٰذا البيت :

فان شفائى نظرة ان نظرتها الى أحد و الحرتان قريب
والى لأرعى النجم حتى كأننى على كل نجم فى السماء قريب
واشتاق للبرق اليمانى إن بدا وازداد شوقا أن تهب جنوب

ان الاشواق التى عبرعنها الشعراء هى أشواق مادية زائلة' سواء كان بيت امرئ القيس :

وان شفائى عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول

أوقول شاعر عربى:

هواى مع الركب اليمانيين مصعد جنيب وجثمانى بمكة موثق

أما الاشواق التى يذكرها محمدبن عبدالملك فهى اشواق روحانية' خالدة ووصفها وصف خالص و مؤثر يعالج القلب تاثيراً مباشراً .

وعندما يدخل هٰذا المشتاق حمآة الذى تخيله وتصوره فى ذهنه وعشقه وحن اليه فى حياته كلها . فكتب يقول وهو يصف حيرته وهى حيرة العاشق أذا وقف امام حبيبه أومنزل حبيبه فيقول :

"نظرت فى خريطة المدينة كانت معى' وقلت للدليل أما هٰذا (ذباب) قال بلى والله فمايدريك انت' قلت أما هذا (مسجد الرّاية) قال بلى' قلت هذه ثنية الوداع' وخفق قلبى خفقانا شديداً و خالطنى شعور بالهيبة من دخول المدينة' والسلام علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما فى نفسى من الفرح والسرور' وجعلت اتأمل المدينة' وقد دنونا منها حتى لقدكدنا نسيربين بيوتها واحدق بالقبه . وتحتها افضل من مشى على الأرض وقد شخص بصرى وكدت لا أرى ماكان حولى لفرط ما أحس من جيشان العواطف فى نفسى' حتى غاصت المشاهد فى عينى و تداخلت كانها صورة يضطرب بهاالماء وأحسست كأنى قد خرجت من نفسى' وانفصلت عن حاضرى . و ذهبت أعيش فى عالم طلق لاأثر فيه لقيود الزمان والمكان .

ويقول : ونظرت فاذا السيا رات امام باب السلام فأ شترأيت الأعناق' وبرقت الابصار' ودمعت العيون' وخفقت القلوب . وتعالى الهتاف' ونزلنا ندخل مسجد الرسول وكانت حال لاسبيل الى وصفها قط . اللهم اجعل لنا الى تلك البقاع التى شرفتهابمحمد معاداً" .

ويصل هٰذا الملهوف والمشتاق الى مكة ويأتى موعد زيارة الكعبة فيخاطب صحبه :

"كانكم تدنون من الحبيب و دونه الحجب والأستار' فلاتزال ترفع لكم حجابا بعد حجاب' وستراً بعد ستر حتى تروا طلعة الحبيب واين طلعته من طلعة الكعبة

وقبلة الاسلام و مهوى القلوب .

ها هى ذى الكعبة ياناس، هٰذا الحطيم، وزمزم ، والمقام، لقد صحت الرؤى، وتحققت الاحلام"

ويصف الطواف ثم يقول وهو يشعر بأنه عاجز عن البيان "انه ليس الوصف كالعيان ولايستطيع قلم ولا لسان ان يصف لكم هاتيك العواطف السماوية التى تملاء قلب المسلم انه يطوف بالكعبة فيخرج من حاضره وينسى دنياه". (۲)

ان هٰذا الكاتب الذى ذكرنا امثلته من رحلته الحجازية هوعربى يعيش فى جوار البلد الذى زاره، وهو ليس بغريب، فاذا كانت هذه رحلة أديب يعيش على بعد الاف الأميال فكم تثورعواطفه و تهيج شجونه.

يقول الشيخ ابوالحسن على الحسنى فى كتابه "الطريق الى المدينة" وهو يعلل أسباب الشوق والهيام الذى تزحزبه المدائح النبوية فى اللغتين الفارسية والهندية "علل بعضهم بالبعد والهجر، فلهما تاثير غريب فى تفجير منابع القلب والحب و توليد المعانى الغريبه و اشعال المواهب الدفينة" (۳)

وهذه انطباعات نفس الكاتب الذى يزاورالمدينة المنورة، فيصف حاله وأشواقه، ويتصور عظمة المكان و قدسيته و تاثيره على قلب الملهفَ الولهان فيقول:

"توجهت بعد الحج إلى المدينة المنورة على جناح الشوق ، بحدوثى حادى الحب والوفاء، أتحمل متاعب السفر، و أتمثل ذلك الراكب الأول الذى ملاء الفضاء نوراً و سكينة، ووصلت الى المدينة المنورة، وصليت ركعتين فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، وحمدت الله على ذلك ثم وقفت و انا مثقل بمنن لا استطيع أن اكافئها ، ولاأستطيع ان أقضى حقها، وصليّت عليه صلى الله عليه وسلم، وسلمت عليه صلى الله عليه وسلم، وشهدت أنه صلى الله عليه وسلم، قدبلّغ الرسالة وادّى الأمانة، و نصح الامة وجاهد فى الله حق جهاده . وعبدالله حتّى آتاه اليقين، وسلّمت على صاحبيه الوفيين الامينين اللذين لم يعرف التاريخ البشرى صاحباً أوفىٰ لصاحبه منهما ولاخليفة اقوى على

حمل أعباء الخلافةمنهما رضى الله عنهما وارضاهما' ثم توجهت إلى البقيع' تلك قطعة صغيرة التى تحتضن اعظم ثروةفى الصدق والصفاء والخلة والوفاء وهناك رجال آثروا الآخرة على الدنيا و آثرو الغربة والهجرة فى سبيل الايمان والعقيدة على البقاء فى الوطن فى سبيل الشهوة والراحة' وآثروا جوار الرسول صلى الله عليه وسلم على جوار الاحبة والأقارب' فلم يبغوا عنها حولاً ولم يطلبوا له بدلاً : مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوْا مَاعَاهَدُوا اللّٰه عَلَيْهِ".

"وتوجهت الى أحد تلك القطعة التى مثلت أروع رواية واعظمها تاثيراً على تاريخ الانسانية رواية الايمان واليقين' رواية البطولة و الوفاء' رواية الحب الطاهر والولاء النادر' وكأنى اسمع من انس بن النضرؓ "انى لأجد ريح الجنة من دون أحد" ويقول سعد بن معاذؓ : ماذا نصنع بالحرب بعد محمد صلى الله عليه وسلم وقد طار فى الناس انه قتل' فيقول انس :' ماذا نصنع بالحياة بعد محمد صلى الله عليه وسلم وهنافى أحد ترس ابودجانه على رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهره و النبل يقع فيه' وهناترس طلحة بيده حتى شلت' وهنا قتل حمزة ومثل به وقتل مصعبؓ بن عمير أنعم فتيان قريش عيشاًولم يجدوا مايكفنونه به الاالكساء الذى لا يغطى كل جسده' ياليت احداً اعار العالم شيئاًمن هٰذا الحب والولاء وأهدى للعالم شيئاً من الايمان واليقين' فتبدلت الأرض غير الارض والعالم غير العالم"(٥)

هذان نموذجان للكتابة الأدبية الفنية التى اشتملت على العواطف واليكم نموذجاً آخر اسلوبه اسلوب هادى' تحليلى' علمى' لأن الكاتب باحث محقق اديب يركز على النقط العلمية ومواضع الاختلاف و آراء العلماء والأدباء فينتقل من وصفه للأماكن الى المباحث العلمية حولها.

انه مأخوذمن رحلة الحج الى بيت الله الحرام للعلامة محمد الأمين الشنقيطى' وقد سافر من موريتانيا الى الحجاز' والعلامة الشنقيطى فقيه' فينتقل ذهنه الى المسائل الفقهيه كما ينتقل ذهنه الى المسائل النحوية واللغوية التى يذكرها بمناسبة لقاء اتهٖ'

اواسئلة علمية وجهت اليه خلال زيارته من ادب و نحوو فقه واصول و تفسير وعقائد و منطق و تاريخ و بينة وطبيعة .

وقدكتب الاستاذ عطية محمد سالم أحد تلاميذ الشيخ مؤلف الرحلة فى تقديمه لهذه الرحلة' و بيان ما تتميز فيه عن غيرها من الرحلات الحجازية فقال :

"يغلب على أساليب الرحلات و موضوعاتها أن يكون مبناها عرض خط السير من منطلق صاحبها الى منتهاه' وتسجيل معالم الطريق وأحداث المسير وماجرى لصاحبها من أحداث تسرُّ او تحزن وتضحك أوتبكى وكل ما تشتمل على مجالس ادبية أومباحث علمية' وبين ايدينا من أشهرالرحلات' رحلة ابن بطوطة' ورحلة ابن جبير ' وكلاهما رحلا من المغرب الى الحجاز وعادا الى بلده فلم تجد فيهما من المجالات العلمية اكثرمن عرض لمشاعر الحج .

ولم اقف على رحلة عنيت بمسائل علمية أومجالس العلماء ومباحث دقيقة وجليلة' اللهم إلا رحلة النابلسى الى المدينة المنوره' فقد بسط فيها مباحث فقهية واحاديث نبوية وان كانت لم تتعرض لشئ من المعقول كالمنطق والأصول ورحلة ابى على القالى .

وهٰذه الرحلة التى أتشرف بالتقديم لها قد تميزت عن جميع الرحلات بما زخرت به من مباحث غاية فى الدقة وآية فى الروعة (٦) و مؤلف الرحلة الشيخ امين الشنقيطى يبين نفسه منهجه فى رحلته فيقول :

"فليكن فى علم ناظره أنا أردنا تقييد خبر رحلتنا هٰذه الى بيت الله الحرام ثم الى المدينة خير الأنام عليه افضل الصلاة والسلام ليستفاد مما تضمنته من المذاكرة والاحكام و اخبار البلاد والرجال وما تجول فيه الادباء من المحال' والغرض الاكبر من ذلك تقييد ما أحببنا به عن كل سوال علمى سئلنا عنه فى جميع رحلته"

انه يبدأ رحلته بقوله :

خرجنا من عند اهلنا بجانب الوادى ذى البطاح والمياه والنخيل وودعنا كل

قريب و خليل' والبين يهيج فى القلوب الداء الوخيل' فترى ورد الخدود يطله جمود الدموع' والأعين تنكر السِنة والهجوع' ماء العيون فى الجفن حائزه حسبما قال الشاعر:

ولما شجانى انها يوم ودعت تولت دماء العين فى الجفن جائر
فلما اعادت من بعيد بنظرة إلى التفاتا اسلمته المحاجر

كان يوم الخروج لهذه القاعدة الكبيرة لسبع مضين من جمادى الآخرة من سنة سبع وستين و ثلاثمأة والف."

و بعد وصف خروجه من منزله' ووصوله الى مكان "كيفيته واقامته هناك لمدة قليلة يقول "سألتناكريمة من بنات العجم عن مسألتين' أولاهما الفرق بين علم الجنس واسم . والثانية قول المتكلمين ان الصفة النفسية لايدرك بدونها الموصوف وان الانسان مثلاً بدون النطق غير معروف .

ويجيب الشيخ عن السؤالين بالتفصيل فى رحلته :

ثم يقول : وصلنا قرية تا شكط عند صلاة المغرب فزارنا رجل من فيها من الأكابر والعلماء وعاملونا معاملة الكرماء . وكنا فى ضيافة الرئيس سيدى احمد بن العربى .

ويقول : وجّه اثناء تلك المذاكرة السوال عن مسألتين' احداهما بيان كيفية استحاله تسلسل هيولىٰ العالم .

وبحث المؤلف هٰذه المسالة ثم استانف رحلته فكتب : ثم سرنا متوجهين تلقاء قرية العيون' والعيون التى تسمّٰى بها القرية عيون متعددة متفجرة من جبال هناك يقال لها باللسان الدارجى "عيون العتروس" وهو بلسانهم الدارجى "التيس" فقابلنا من فيها من الفضلاء باللائق من الاكرام و التبجيل' وبالغ فى اكرامنا قاضيها مع هدية سنية واخلاق" وينتقل الى بعض المسائل الفقهية التى جرت فى مجلس القاضى و هكذا ينتقل من مكان الى مكان فى رحلته ويذكر المسائل التى توجه اليه ويذكر جوابه.

المسائل اللغوية :

طلب منا بعض القوم ان نبيّن لهم تنقيح المناط وتخريج المناط وتحقيق المناط فكان جوابنا :

المناط بفتح الميم هوعلة الحكم .

والمناط فى اللغة مكان النوط وهو تعليق الشيء على الشئ والصاقه به كما قال حسان رضى الله عنه :

وانت زنيم ينط من ال هاشم كما ينط خلف الراكب القدح الفرد

وقال ابو تمام :

احب بلاد الله ما بين منج الىّ وسلمى ان يصوب سحابها
بلاد بها ينطت على تمائمى وأول أرض مس جلدى ترابها

وسميت العلة مناط الربط الحكم بها و تعليقه عليها .

ثم يبحث تنقيح المناط وتخريج المناط .

يذكر الشيخ هٰذه المجالس العلمية خلال رحلته من بلده الى ام درمان ويصف فى آخر الرحلة توجهه الى الحجاز، فيصف رحلته، وبين خروجه من بلده الى ركوبه سفينة الحجاج فى ام درمان ٢٥٤ صفحة، استغرقها كلها فى مسائل فقهية، و لغوية، وبلاغيه واصولية، واستقباله الذى قوبل به فى كل محطة نزل بها .

يقول : "ركبنا فى السفينة متوجهين الى جدة، فمكثت السفينة بنا يوما وليلة فى البحر، ثم نزلنا من الغد فى جده، فنزلنا فى بيت لآل جمجوم غمومى لنزول اهل قطرنا، فمكثنا ليلتين فى جده ولم نجتمع بأحد من أهلها .

ركبنامن جده بعد صلاة المغرب محرمين ملّيين تلبية النبى صلى الله عليه وسلم لبيك اللهم "لبيك، لبيك لاشريك لك لبيك، ان الحمدوالنعمة لك والملك، لاشريك لك" .

ويبحث الشيخ مسألة الاحرام فقهياً، ويقول "كان احرامنا بالحج مفرداً لان الافراد فى مذهبنا افضل من التمتع والقران" ويذكر الأدلة الفقهية ايجاباو سلباً .

ویصف دخوله فی مکة المکرمة :

" ثم دخلنا مکة المکرمة تلك اللیلة محرمین ملبیین تلبیة النبی صلی الله علیه وسلم وطفنا تلك اللیلة طواف القدوم و سعینا بعده بین الصفا والمروة' و کنا عند دخولنا المسجد الحرام قلنا' "اعوذ بالله العظیم وبوجهه الکریم وسلطانه القدیم من الشیطان الرجیم اللهم افتح لنا ابواب رحمتك" .

وعندما وقعت ابصارنا علی الکعبة المشرفة' قلنا "اللهم زدهٰذا البیت تشریفاً و تکریما وتعظیما و مهابة' وزد من شرفه و کرمه لمن حجه او اعتمره تشریفاً و تکریماً و تعظیماً و براً" ثم ابتدأنا طوافنا من رکن الحجر فقبلنا الحجر الأسود و قلنا "بِسْمِ اللّٰهِ اَللّٰهُ اَکْبَرُ وَلِلّٰهِ الْحَمْد" .

وهکذا تسیر رحلة العلامة امین الشنقیطی الحجازیة وهی من أولها الی آخرها رحلة علمیة یجد القاری فیها مجالس علمیة و مباحث فقهیة ولغویة وبلاغیة' ولا یجد فیها وصفاً لمنظر او تعبیراعن عواطف لأن طبیعة الکاتب وذوقه علمی خالص کما لا تجدفیها بحثا جغرافیاً ولا تاریخیاً کعادة الرحالة الاّ ان الرحلة حافلة بالمواد العلمیة والفوائد اللغویة' ویبدو الکاتب فی المجالس العلمیة حیث یقیم اویمکث یوما او یومین مرجعاً توجه الیه الأسئلة التی یحار فیها الباحثون' وهو یحل المشکل منها' وعندما یصل الی الاماکن المقدسة ینزل من مرتبته العلمیة' ویصبح زائراً عادیاً ویسوده الخشوع والحشمة .

وهنا نموذج آخر وهو عبارة عن وصف ادبی و تأثیر قلبی بمشاهدة الدیار الحبیبة ابدع فی وصفها الکاتب الادیب' وهو محمد حسین هیکل فی کتابه "منزل الوحی" وکم یختلف هذا الوصف من وصف الکاتب السابق الذکر' . اقرأوا وصفه لمدینه جده اول ظهورها وهو فی الباخرة :

"اقتربنا من جدة' وبدت لنا ظهرها و دورها و عماراتها' وازدادت وضوحاً علی رغم نزول الظلام' وکان مظهرها یغری بالظن انها خططت تخطیطاً جمیلا' وبنیت علی

الطراز الحديث، وذلك الشان فى كل مايبدوللمقبل فى البحرمن مظاهر اليابسة فاذا اقتحمناه كنا كالجراح اذ يقتحم بمشرطه جسداً جميلا، واحسب الذين لم يعرفوا من ذلك ماعرفت قد خدعوا بمظهر جدة . وكان من حقهم ان يخدعوا بهذه المبانى التى تمتد امامهم على الشاطئ اميالاً فى نظام زاده البعد اتساقاً وخمالاً .

وفى رحلته الحجازية يقصد الطائف ويصف الطريق اليها ويصل الى حيث كانت تقام قديماً سوق عكاظ، ويقف ويقول :

" وهنا المكان الذى يقولون انه عكاظ، اما أنا فلم أرشيئاً استطيع أن ابتنيه، فقد هبطت كشف الظلام، وانطوى الوجود فى دجنة الليل، و كنا فى الثلث الاخير من ذى الحجة، فلم أر للقمر فى السماء من اثر ولم تكن النجوم لتكشف من غطاء الليل شيئاً وهذه الاودية الصامتة فى اربعة النهار هى الساعة اشدصحتاً ومهابةً .

والذى يلاحظهُ الناظر فى كتابته الوصفية أن اروعها ما يتناول الصور المعنوية او المشاعر النفسية، فها هو مثلاً يزور غار حراء فى الحجاز، فتهتز نفسه لديها لذكرى النبى صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن عليه، و يتخطى بذهنه القرون الى الماضى البعيد، واذا هو مسحور بصورة ذلك ليقوم الفذ فى التاريخ، اذ ليترأى له النبى بعين الخيال متمدداً فى الغار وكأنهّ يسمع صوت الملك اذ يهيب بالنبى ان يقراء فيتردد وجلاً ويعود اليه الصوت ان اقرأ فيجيبه ماذا أقراء؟ فيتلو عليه الصوت :

"اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِىْ خَلَقَ خَلَقَ الْاِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اِقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْاَكْرَمُ الَّذِىْ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْاِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ"

وهنايقف هيكل متأثراً فيقول :

" خيّل الىّ وانا فى موقفى من الغار، انى ارى هٰذ المشهد الفذ، وانى اسمع هذه الاصوات..... فصفدنى الفزع مكانى، واقمت ماينتظر مايكون من بعد، فاذا النور الباهر ترفع، و محمد فى الغار يتصبب عرقاً، ويدور بنظراته فيما حوله، و يهتز مضطرباً من رأسه الى اخمصه، ثم يفرك ويمسح بيده جبينه العريض المضئ سمة من يخشى مكروهاً

أصابه، و يزداد به الرعب، فينطلق من الغار ما هائماً في شعاب الجبل لعل في هوائه ما يدفع عنه روعه "

هاهوذا يقف منصتاً كانما يناديه مناد من السماء انه الصوت الذى كان يحدثه في الغار وهو يحدق في مصدر الصوت ويرى صاحبه فيزداد فزعاً . ويقفه الرعب مكانه، ويلقى بنظره الى الجبل، ويصرف وجهه يمنةً ويسرة ثم لاينفك يسمع ويرى بيت حواسه اذن مصدر سمعه ورؤيته انما مصدرها روحه .

وهٰذا الصوت الذى اتصل به هو صوت الروح الامين، ماأشدّ هٰذه الساعة هولاً وهى مع ذلك للانسانية ساعة النور والرحمة والهدى (٦)

الرحلة الحجازية الخيالية

وصاحبهاالدكتور محمد اقبال

و نقدم في الختام نموذجا من الرحلة الحجازية الخيالية وهى ابداع فنى رائع لقد عاش الدكتور محمد اقبال شاعر الاسلام وفيلسوف العصر مدة حياته في حب النبى صلى الله عليه وسلم والاشواق إلى مدينته وتغنى بهما في شعره الخالد، وقد طفحت الكأس في آخر حياته، فكان كلما ذكرت المدينة فاضت عينه، وانهمرت الدموع، ولم يقدر له الحج وزيارة الرسول صلى الله عليه واله وسلم لجسمه الضعيف الذى كان يعانى من زمان الأمراض والاسقام، ولكنه رحل الى الحجاز بخياله القوى وشعره الخصيب العذب وقلبه الولوع الحنون، وحلق في اجواء الحجاز، وتحدث الى الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم بما شاء قلبه وحبه و اخلاصه ووفاءه ، وتحدث اليه عن نفسه وعن عصره و عن امته و عن مجتمعه، وقد فاضت في هذا الحديث قريحة الشاعر و انفجرت المعانى و الحقائق التى كان الشاعر يغالبها ويمسك بزمامها و ينتظر فرصة اطلاقها، وقد رأى ان فرصتها قدحانت وهٰذا أوانها ومكانها، فخاطب نفسه بقول الشاعر :

حمامة جرعى حومة الجندل اسجعى فانت بمرأى من سعاد ومسمع

فکان شعره فی النبی صلی اللّٰه علیه وسلم من ابلغ اشعاره واقواها، وکان حشاشة نفسه وعصارة عمله و تجاربه، وکان تصویراً لعصره وتقریراً عن امته، و تعبیرا عن عواطفه .

لقد قال محمد اقبال هذه الابیات، وهو یتخیل انه مسافر الی مکة و المدینه شرفهما اللّٰه، یهوی به العیش ویسیر به الرکب علی رمال وعساء یتخیل بشدة شوقه وحبه انهما انعم من الحریر وان کل ذرة من ذراتها قلب یخفق فیطلب من السائق ان یمشی رویداً و یرفق بهذه القلوب الخفاقة، ویحدو الحادی بما لایفهمه، فتثوراشجانه و تترنح اعطافه، و تهیج شعریتهٗ وتنطلق فیثارته بشعر رقیق بلیغ .

ثم یسعد بالمقول بین یدی الرسول فیصلی ویسلم علیه بما یفتح الله به علیه، وینتهز الفترة فیحدثه عن نفسه وبلاده، والفترة التی یعیش فیها وعن امته و عن الازمّات والمشاکل التی تعانیها وما فعل بها الزمان وطوارق الحدثان ومافعلت بهاهذه الحضارة الغربیة والفلسفات المادیة، ومافعلت برسالتها والامانة التی حملتها واین هی من ماضیها وخصائصهٗا یرثی لها تارة ویبکی ویشکوهامرة ویعاتب ویشکوغربته فی وطنه و وحدته فی مجتمعة وضیعة رسالته فی امته، وقد سمیٰ هذه المجموعة "بهدیة الحجاز" کانها هدیة حملها من الحجاز لاصدقائه و تلامیذهٖ، ولاشك انها هدیة مبارکة للعالم الاسلامی و نفحة فائحة من نفحات الحجاز.

یقوم الشاعر بهذه الرحلة الحبیبة، وقد أربی علی الستین ووهنت قواهٗ فی سن یفضل فیها الناس الراحة والاقامة، فمابالهٖ یسافر وهو شیخ وقد أضعفه المرض والشیب، والسفرالی الحجاز شاق مضن، وقد نصحه الاطباء والاحبة بالراحة والهدوء، ولکنه یعصیهم ویطیع أمرالحب، ویلبّیٔ منادی الشوق و یقول، لقد توجهت الی المدینة رغم شیبی وکبرسنی، أغنیّ وأنشد الابیات فی سرور و حنین، ولاعجب فان الطائر یطیر فی الصحراء طول نهارهٖ، فاذا دنا النهار واقبل اللیل رفرف بجناحیه، وقصد وکره لیأوی الیه و یبیت فیّه.

كأنه يقول لماذا تعجبون اذا قصدت المدينة وهى وكرطائر الروح ومأرز المؤمن فى أصيل حياتى وفى سن اشرفت فيها شمس الحياة على الغروب؛أما رأيتم الطائر اذا جن الليل أسرع الى وكره .

بدأ محمد اقبال سفره وهو شيخ مريض، وسارت به الناقة بين مكة و المدينة سيرا حثيثا وقدقال لها، رويدك يا حبيبتى، فان راكبك لاغب و مريض و كبيرالسن، فمشيت فى نشوة وطرب ولم تبال كأن الصحراء حرير تحت ارجلها.

يسيرا الشاعر فى هذا الركب الحجازى الذى يحدو بالصلوة على النبى صلى الله عليه وسلم ويريد الشاعر ان يسجد سجدة على هذه الرمضاء ، يدوم أثرها فى جبهته طول حياته ، ويقترح ذلك على اصحابه وزملائه، ويملكه الشوق فيحدو وينشد أبياتا من شعر العراقى والجامى فيتسأل الناس من هذا الأعجمى الذى يغنى ويحدو بلغة لا نفهمها؟ ولكنها نغمة تشجى القلوب و تملؤها ايماناً وحناناً حتى يذهل الرجل فى هذه الصحراء عن الغذاء والماء .

ويلذ الشاعر بكل ما يعتريه فى الطريق من سهروعناء وقلة طعام و شراب، ولا يستطيل الطريق ولا يستبطئ الوصول، بل يقترح على سائقه أن يا خذ طريقاً اطول حتى يعيش فى هذه الأشواق وفى هذا الحنين مدة أوسع، و تشتد لوعة الفراق لأنها زاد العشاق و نزهة المشتاق.

وهكذا يطوى محمد اقبال هذه المسافة فى سرور و حنين حتى يصل الى المدينة، فيقول لزميله "تعال يا صديقى نبك سروراً ونتحدث ساعة و نرسل النفس على سجيتها، فان لنا شأنا مع هذا الحبيب الذى أسعدنا به الحظ بعد طول فراق و شدة اشتياق.

ويقبل على نفسه فيتعجب كيف اختص من بين أقرانه هذه السعادة ثم يقول "لاعجب فان المحبين المتيمين اكرم هنامن الحكماء المتفلسين، يا سعادة الجد، وياحسن الطالع ، لقد سمع لصعلوك مملوك ان يدخل على السلاطين والملوك.

ولایلبث محمد اقبال وهو فی هذا الفیض من السرور والسعادة ان یذکر امته المسلمة والشعب المسلم الهندی یذکر آلا مهما واما لهما . فیذکر کل ذلك فی بلاغة الشاعر و صدق الرائد وما اجملهما ادا التقیا' یقول :

"ان هذا المسلم البائس الذی لاتزال فیه بقیة من شمم واباء وانفة الملوك وعزة الآباء' لقد فقد مع الأیام یا رسول الله' لوعة القلب واکسیر الحب' ان قلبه حزین منکر و لکنه لایعرف سرّذلك" .

ماذا حدثك به یا رسول الله عن آلامه و رزیئته' حسبك انه هوی من قمة عالیة' انه هبط من تلك العلیا التی وصلت به الیها وکلما ارتفع المکان الذی یسقط منه کان المه شدیداً' فکانت الصدمة عظیمة' فلطف الله بهٰذه الأمة النکوبة الهاویه من قمة المجد العالیة .

انه لایزال الزمان یعادیه' ولایزال رکبه تائهاً فی الصحراء بعیدا عن غایته و منزله' حسبك من هذا الأمة ومایسود فیها من الفوضٰی والاضطراب' انها تعیش من غیرایام"

"ان غمده فارغ ککیسه 'فهواعزل فقیر' ان الکتاب الذی فتح به العالم وضعه فی بیته الخرب علی طاق تراکمت علیه الاتربة' ونسج علیه العنکبوت"

"انه أصبح بطول عهده بالمغامرات و البطولات لایفهم لغة المغامرین واصابة الشجعان المجاهدین و قدالف نغمة المغنیین' وعاش بین الزفرات و الأنین"

" وان عینه فقدت النور' وان قلبه حرم السرور' ان رزیئته انهٔ یعیش ولایعرف لذة الوصال والحضور"

ثم یذکر الفرق بین ماضیه العظیم الذی کان فیه موضع رعایة وعنایة واحتناء' وحاضرة القاسی الکالح' وکیف صعب علیه ان یتقشف و یعتمد علی نفسه' ویکدح فی الحیاة وما ابلغ قوله :

"انه طائر مدلل' کنت تطعمه بیدك' وقد ربیته بالفواکه فشق علیه البحث عن

رزقه فی الصحراء"

هذه بعض نماذج الرحلات الحجازية، وهی کیثره وقداخترت ثلاثة انواع منها، النوع الأدبی الفنی، النوع العلمی، النوع الخیالی، وفی کل نوع من هذه الانواع نماذج کثیره، و قصرت عملی و بحثی علی اللغة العزبیة، امااللغة الأردية و الفارسية فهی اکثرواوسع واکثر تأثیرا لأن اللغتین الاردية والفارسية هما نعتا الحب والحنان والرقة، ولذلك فاق الشعراء فیهما فی المدائح النبوية غیرهم فی التعبیر عن عواطفهم وولاء هم .

یقول الشیخ ابوالحسن علی الحسنی الندوی وهو ادیب اللغتین وقد قدمتا نموذ جا من کتابته العربیة، وله رحلة حجازية فی اللغة الأردية باسم "من منزلی الی بیت اللّٰه (گھر سے بیت اللہ تک) و قد جرب کثیر من القراء ان هذا الرحلة اذا قرأها احد لم یتمالك قلبه، و انهمرت الدموع من عینیه، واجهش بالبکاء ولا یستطیع احد ان یقراء ه قرأ ة واحدة .

یقول فی عواطف الهنود والفرس عن النبی صلی الله علیه وسلم "وقد تحقق عندالمطلعین علی الادب الاسلامی العالمی الذین د رسوا آداب اللغات التی تکلمت بهاشعوب الاسلامیة فی بلادها، و تذوقوا شعرها أن اللغة الفارسیة هی اغنی ثروة واسعدحظًا فی المدائح النبوية من غیر ها و تلیها اردو التی هی سلیلة الفارسیة، وان ماقیل فی ایران والهند فی هذا الموضوع یمتازمن غیره قوة و تاثیرا، ورقّة وعذوبة، وقد تجلت فیه العاطفة اقوی واروع منها فی غیره"

وکان من حق الرحلات الحجازية باللغة الاردية ان ینظر الیها، وتدرس، ولکن العواطف الحیاشة والحنان المتدفق لایترجم، ولایقدر علی نقله الأدیب اکثر قدرة علی البیان، وانا اعترف بعجزی عن ذلك .

الحواشی و التعلیقات

(۱) الاخنس بن شریق .

(۲) من نفحات الحرم لعلی' الطنطاوی' دارالفکر بدمشق 'ص۹۷

(۳) الطریق الی المدنیه .

(٤) الایة ۲۳ من سورة الاحزاب .

(٥) الطریق الی المدینة ' للشیخ ابی الحسن علی الحسنی الندوی .

(٦) کلمة تقدیم الاستاد عطیة سالم' الرحلة الحجازیةللیشخ محمدامین الشنقیطی .

(۷) منزل الوحی ' لمحمد حسین هیکل .

****